82613 ـ توضيح قوله تعالى (إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان)

السؤال

ورد في قصة سليمان وملكة سبأ في سورة النمل الآية التالية : (قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)
أنا أفهم أن المعنى : أنها ظلمت نفسها بالكفر ، وأنها أسلمت بعد أن تبين لها الحق ، ولكن لفظ الآية ، وعدم وجود علامة وقف بعد كلمة (نفسي) ، توحي بعكس هذا المعنى ، وهو أنها ظلمت نفسها بالإسلام ـ ومعاذ اللّه ـ ، فهل من توضيح ؟.

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

يقول تعالى في سورة النمل : (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) . النمل/44

يحكي سبحانه وتعالى في هذه الآية المفاجأة الكبيرة التي كان أعدها سليمان عليه السلام لملكة سبأ ، وكانت قصرا من البلور ، أقيمت أرضيته فوق الماء ، فوقفت الملكة مدهوشة أمام هذه العجائب التي يعجز عن مثلها البشر ، فرجعت إلى الله ، وناجته معترفة بظلمها لنفسها فيما سلف من عبادة غيره ، معلنة إسلامها مع سليمان لله رب العالمين .

هذا هو فهم سياق القصة ، وهو أيضا ما تقتضيه قواعد اللغة العربية .

فإن قولها (ظَلَمْتُ نَفْسِي) جملة فعلية في محل رفع خبر (إِنِّي)

ثم جاء حرف العطف (الواو) ليعطف جملة على جملة ، فقالت (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ)

انظر "إعراب القرآن وبيانه" محيي الدين درويش (7/216) ، "الجدول في إعراب القرآن" لمحمود صافي (9/415)

والتقدير : وإني أسلمت مع سليمان لله رب العالمين .

وهذا هو التقدير الصحيح ؛ لأن النحاة يقولون : إن حرف العطف إنما جيء به لاختصار التكرار في الجملة .

يقول ابن عقيل في "شرح ألفية ابن مالك" (2/208) :

" العطف على نية تكرار العامل " انتهى .

فبدل أن تقول : جاء زيد وجاء عمرو ، تختصر فتقول : جاء زيد وعمرو .

وكذلك الحال في عطف الجمل التي لها محل من الإعراب :

فبدل أن تقول : إن الله يعلم ما أنتم عليه ، وإن الله سيحاسبكم عليه .

تختصر فتقول : إن الله يعلم ما أنتم عليه وسيحاسبكم عليه .

فالواجب فهم الآية الكريمة على هذه القاعدة ، فيكون تقدير الآية :

(إني ظلمت نفسي ، وإني أسلمت مع سليمان لله رب العالمين)

ولا يلزم لغة ـ إذا كان العطف بين الجمل ـ أن تشترك في المعنى ، بل قد يكون المعنى متضادا .

يقول الأستاذ عباس حسن في "النحو الوافي" (3/557) :

" والعطف بالواو إذا كان المعطوف غير مفرد ، قد يفيد مطلق التشريك ، نحو : نبت الورد ونبت القصب ، أو لا يفيد ، نحو : حضرت الطيارة ولم تحضر السيارة " انتهى .

فحين يعطف الله تعالى قول ملكة سبأ (وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ) لا يجوز أن تفهم على أنها توضيح للمعطوف عليه أو بيان له ، من حيث أصل اللغة ، فكيف حين يكون بين المعنيين تضاد ظاهر .

والسياق يبين أن الملكة اعترفت بظلمها نفسها حين كانت تعبد الشمس من دون الله ، فتابت من ذلك الشرك ، وأسلمت وجهها ، ووحدت عبادتها لله رب العالمين .

وبهذا يكون المعنى سليما ، وينتفي التوهم الذي يظنه السائل في الآية .

قد يكون لإشكال السائل وجه – من حيث قواعد النحو ـ إذا كان سياق الكلام :

(إني ظلمت نفسي : أسلمت مع سليمان) بحذف حرف العطف ، على أن الجملة الثانية بدل من الجملة الأولى ، كقوله تعالى :

(وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً : يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً) الفرقان/68-69

فإن مضاعفة العذاب هي بيان وتوضيح للإثم الذي يلقاه مرتكب الكبائر .

كما قد يكون لهذا الإشكال وجه – من حيث قواعد اللغة – لو كان حرف العطف هو الفاء ، فكان الكلام : إني ظلمت نفسي

فأسلمت مع سليمان .

فإن الفاء تفيد – كثيرا – مع الترتيب (التسبب) ، أي الدلالة على السببية في عطف الجمل ، نحو : رمى الصياد الطائر فقتله . انظر "النحو الوافي" (3/574)

أَمَا وقد جاء السياق القرآني على الوجه البَيّنِ الجَلِيّ :

(قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

فليس لإشكال السائل أي محل من الفهم الصحيح للسياق ، وقواعد النحو العربي .

والله أعلم .